طه حسين وفلسطين

حلمي النمنم *

يثـير هذا العنوان العديد من التسـاؤلات، لعل من أهمها: لماذا طه حسـين بالذات من بين الكتاب العـرب عمومًا والمصريين خصوصًا؟ كان طه حسـين مجايلاً للعقاد وأحمـد أمين ود. هيكل والمازني وآخرين، فلماذا هو وحده تخصه الدراسـة؟ ولماذا فلسـطين من بين البلـدان العربية التي نتوقف عندها..؟ في شباب طه حسين كانت السودان من الناحية الإدارية والسياسية جزءًا من التاج والعرش المـصري، فلماذا لا ندرس علاقة طه حسـين بالسـودان – جنـوب الوادي- أو ليبيـا وندرس علاقته بفلسطين؟

المسـألة تتعلق، في جانب منها، بخصوم طه حسـين، وهو كان كثير الخصـوم، ذلك أنه طوال حياته شغل نفسه بإعمال العقل في معظم قضايانا، ولم يكن ينافق السلطان ولا ينافق الجمهور، وفي بلادنا نفاق السـلطان مكشوف وممجوج، لكن نفاق الجماهير وتملقها من بعض الكُتاب لا يكون مكشوفًا بالقدر الكافي ولا مؤاخذة عليه، ولم يكن طه حسين من هؤلاء، ومن ثم غاص في قضايا وأمور أحجم غيره عن الاقتراب منها، مثل التحذير سـنة ١٩٢٤ من الاستسـلام لزعامة وكاريزما سعد زغلول، ونبه طه حسين إلى أن الناس لا يفكرون لأن الزعيم يفكر لهم ولا يقررون لأنه يقرر نيابة عنهم، وأغضبت آراؤه تلك جماهير الوفد ومحبي سعد زغلول وغير ذلك كثير، والخصومات السياسية يمكن أن تنسى ويتم التسـامح معها بعد حين، لكن الخصومات ذات الصلة بالفكر الديني لا تنسى أبدًا وتتحول إلى

* كاتب وباحث مصري

ثارات حقيقية تتوارثها الأجيال وهذا ما تعرض له طه حسين.. والذي حدث أن د.طه حسين في سنة ١٩٢٦ أصــدر كتابه «في الشــعر الجاهلي» وثارت ضجة حوله واتهم بالاعتداء على الدين الإســلامي وقدمت ضده عدة بلاغات إلى النيابة العامة، ونوقش الأمر في البرلمان وتم التحقيق مع طه حســين أمام النيابة العامة وانتهى الأمر إلى حفظ التحقيق لعدم ثبوت القصد الجنائي لدى د. طه حسين، من جانبــه قام هو بتعديل الكتاب وإعــادة صياغته وحذف منه بعض العبارات التي كانت مثار الجدل والرفض وأصدره باسم «في الأدب الجاهلي».

فريــق من الإســلاميين لم يغتفرها لطه حســين ولم يثق في نتيجة التحقيقــات ولم يثق في صياغة طه حسين الجديدة للكتاب، وهكذا بقى عندهم كارهًا للدين، مستهزئًا به، رغم أنه لم يكن كذلك يومًا..

انتهز هذا التيار وفاة طه حســين في أكتوبر ١٩٧٣، وانطلق بعدها يحاكم طه حسين من جديد، بأثر رجعــى وكانــت مصر تتجه بعد حرب ١٩٧٣ إلى وجهة جديدة أريد لها أن تســير فيها، وكانت هذه الوجهة تقتضي وجود تيار الإســلام الســياسي، فانطلق رموز هذا التيار ينكلون معنويًا بطه حســين، وهكذا أصدر أنور الجندي كتاباً يتهم طه حســين بتهم متناقضة مثل أنه كان شيوعيًا وكان وجوديًا، رغم أنه يســتحيل الجمع بين الفكرتين، وإمعانًا في تشــويه عميــد الأدب العربي قيل إنه كان ممالئا للصهيونية، مناصرًا لها، أسس مجلة «الكاتب المصري» سنة ١٩٤٥ بأموال يهودية صهيونية وأنه طوال حياته، لم يكتب كلمة واحدة عن فلســطين ولا عما تتعرض له ولم يذكر كلمة «فلســطين» نهائيًا في كتاباته. وكان القصد من ذلك هو الطعن في وطنية طه حسين، وكأنهم لم يكتفوا بالطعن في عقيدته الدينية فذهبوا إلى الطعن في عقيدته الوطنية.

وبعيدًا عن طه حســين هل يمكن لكاتب عربي، فضلاً عن أن يكون مصريًا أن يتجاهل فلســطين أو يجهلها؟ وهل يمكن لكاتب أن يفلت من التوقف أمام فلسطين، سواء كان مسيحيًا أو مسلمًا؟

فلســطين هي موطن الســيد المسيح، فيها نشــأ ثم هربت به والدته الســيدة العذراء إلى مصر، ثم عاد إلى فلســطين ليعلن دعوته ويقضي هناك.. ومن ثم فهي – فلسطين – جزء من عقيدة المسيحي وثقافته في أي مكان وفلســطين بالنســبة للمسلم لا تقل أهمية، هي موقع معجزة الإسراء والمعراج، أسرى برســول الله من مكة إلى بيت المقدس، أي فلســطين، وشاء القدر أن يكون لفتح بيت المقدس شأنًا خاصًا بين الفتوحات الإسلامية، فقد فتحت صلحًا وأبى أهلها إلا أن يكون الصلح مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وليس مع قائد جيوشه، وذهب إليهم عمر بنفسه، وهنا جرت «العهدة العمرية»

التـي لا تزال تـتردد في الوثائق الدولية والمحافل السياسـية إلى اليوم.. والقصد أن فلسـطين بحكم الاعتقـاد والتاريخ الديني مفروضـة معرفيًا وعلمياً، قبل أي شيء آخر، عـلى الباحث والدارس.. أما فلسطين في الشأن المعاصر فقد أخذت اهتمام الجميع، منذ أن صارت قضية العرب عمومًا والمصريين خصوصًا لأسباب جغرافية وسياسية.

ترى أين طه حسين من هذا كله؟

كانت فلسـطين حاضرة بقوة وبعمـق في ذاكرته ووعيه وعلى أكثر من مسـتوى، التاريخي والعقلي والسـياسي.. ومن قرأ كتاب طه حسين «الشـيخان» يجد أنه في حديثه عن الفتوحات الإسلامية زمن عمر بن الخطاب يتوقف عند فتح القدس، ذكر عابرًا فتح الشـام وفتح مصر، لكن استوقفته القدس وزيارة عمر لها، كي يتم الفتح بنفسـه، بناء على رغبة سـادتها.. سـوف نلاحـظ أن حديثه هنا وفي مواضع أخرى من إسلامياته هو حديث التاريخ والماضي، الذي يأتي التعرض له وتناوله من باب الأمانة العلمية والتاريخية، لكن ماذا عن الحاضر والواقع، ولو شئنا الدقة ماذا عن فلسطين المعاصرة..؟ هنا يرد الحديث لديه في أكثر من سياق وعبر سنوات عديدة..

في سـنة ١٩٣٨ وتحديدًا في ٢٦ ديسـمبر من هذه السـنة يكتب في مجلة الرسـالة مقالاً عن «مصر والعروبـة» يتناول فيه علاقة مصر بالعالم العربي، وفي تلك السـنوات كانـت القضية مثارة، بين من يتبنـون فرعونية مصر، أي مصر القوية المكتفية بذاتها عن جيرانها ومحيطها العربي، وكان هناك من يـرى أن تلتحق مصر بأوروبا وتقلدها تمامًا، وكان هؤلاء يسـيطر عليهـم ارتباط مصر مع بريطانيا العظمى، وثمة فريق ثالث ارتبط بفكرة الخلافة الإسـلامية واسـتعادتها، ولم يكن هو من أنصار أيٍّ منهم.

راح طه حسـين يتحدث في بدايـة المقال عن علاقات وتعاملات مصر مع العـرب عمومًا، لكنه بعد ذلك يأخذ المقال إلى طريق آخر، هو علاقة مصر بسـوريا وفلسـطين تحديدًا، ويفاجئ د. طه حسين قُرّاءه أنه قبل عشر سنوات، أي سنة ١٩٢٨، رفع تقريرًا إلى علي ماهر، حين تولى الأخير وزارة المعارف لأول مرة، وجاء ذلك التقرير إثر انعقاد مؤتمر للآثار شـارك فيه طه حسـين، وعقد المؤتمر بين سوريا وفلسطين ولبنان، وطلب في تقريره أن تقوم مصر بإنشاء مدارس مصرية للتعليم الابتدائي والثانوي في هذه البلاد، ودفعه إلى هذا الاقتراح – كما يقول هو – ما رآه من «السلطان الفعلي للمدارس الأجنبية على هذه الأقطار» ثم يقول: «وكنت أرى أن العقل المصري أقرب إلى العقل السـوري والفلسـطيني

وأحرى أن يتصل به ويؤثر فيه تأثيراً حسنًا من العقل الأمريكي أو الفرنسي».

ولم يكــن يبالــغ في ذلك ولا يجامــل، في العام الذي كتــب فيه هذا المقال، أصدر طه حســين كتابه «مســتقبل الثقافة في مصر» والذي انتهى فيه إلى أن العقل المصري ارتبط بالبحر المتوسط وتأثر به، وارتبط كذلك بالعقل اليوناني، وقع ذلك الارتباط خلال فترة ســيادة الدولة الرومانية، وإذا عدنا إلى الجغرافيا وإلى التاريخ نجد أن ما ينطبق على مصر – هنا – ينطبق على فلســطين، ذلك أن فلســطين تمتلك ساحلاً ممتداً على المتوسط مثل مصر.

أما فترة التاريخ الروماني فقد عاشــتها مصر، كما عاشــتها فلســطين وســوريا.. ومن ثم فحين يعلن هو أن العقل المصري أقرب إلى العقل الفلســطيني والعقل الســوري، فهذا يتســق تمامًا مع أفكاره وآرائــه المكتوبة والمعلنة، المفاجأة هنا أن رأيه وموقفه المعلن ســنة ١٩٣٨ كان مثبتًا لديه من نهاية العشرينــات، لكن في تقرير رفعــه إلى وزير المعارف العمومية، ولم يأخذ به وزير المعارف لأســباب عديدة ورد ذكرها في المقال، المهم أنه يعاود طرح القضية مجددًا مطالبًا مصر، أن تنشــئ مدارس في فلسطين وفي سوريا ولبنان..

ويحاول طه حســين أن يهون من العقبات التي اعترضت الاقتراح ســنة ١٩٢٨، ويقدم تصورًا لتنفيذه عــلى النحو الــذي يتمناه، هو يســعى إلى أن يبدد مخاوف المصريين وكذلك مخاوف الفلســطينيين والســوريين، يقــول بثقة: «ما أظن أن السياســة الوطنيــة لهذه الأقطار تكره أن تنشــأ فيها مدارس مصريــة تحمل إلى أبنائها ثقافة عربية شرقية، ويحملها إليهم معلمون شرقيون مثلهم وعرب مثلهم يتحدثون إليهم بلغتهم ويشــاركونهم في الذوق والعمل والشعور». ولم يكن طه حسين غافلاً عن أن هذه البلاد العربية خاضعة للاحتلال الأوروبي، كانت فلسطين تحت الانتداب البريطاني وكانت سوريا تحت الاحتلال الفرنسي وكذلك كانت لبنان، هو لا يظن أن السياسة الأوروبية سوف ترفض أن تقيم مــصر مدارس في هذه الأقطار، لأن مصر ســمحت بقيام مــدارس أجنبية علي أرضها وأن يكون لهذه المدارس كل الفرص للعمل وللنهوض في حدود «القوانين المصرية وعلى أن يكون التبادل أساسًــا لهذا الاتفاق»، كان ذلك ضمن معاهدة ســنة ١٩٣٦ بين مــصر وبريطانيا وما تبعها من اتفاقيات، ويقول طه حسين بتهكم مرير «واضح أننا لا نريد أن ننشئ مدارسنا المصرية في فرنسا أو انجلترا أو إيطاليا، ولكن من حقنا أن ننشــئ المدارس المصرية في البلاد العربية التي تتأثر بسلطان هذه البلاد ونفوذها تأثرًا قليلاً أو كثيراً».

وهــو لا يريــد للمدارس التي يطالب بإنشــائها أن تكون تعبيرًا عن هيمنــة مصرية كما قد يتصور البعــض، ولا يريــد لها أن تفرض الهمــوم والقضايا المصرية على أبناء هذه البــلاد، بل تكون مدارس وطنية في بلادها بالدرجة الأولى، يقول ويؤكد «سننشــئها على أنها معاهد للتعاون الثقافي بيننا وبين أهل هذه البلاد، لا يستأثر المصريون وحدهم بالعمل فيها، بل يستعينون بمن يقدرون على معونتهم مــن الوطنيين، ولا تفرض فيها الجغرافيا المصرية والتاريخ المــصري دون الجغرافيا الوطنية والتاريخ الوطني. إنما تكون معاهد ينشأ فيها الوطنيون لأوطانهم لا لمصر»، ويضيف طه حسين قائلاً: وحسب مصر أنها تعين على ذلك وتشــارك فيه وتؤدى ما عليها من الحق لجيرانها وشركائها في اللغة والدين والاقتصاد، وحسبها أن تظفر منهم بالحب والمودة والإخاء..

ويذهب طه حسين إلى أن ما ينادي ويطالب به ويلح عليه، ليس جديدًا بالنسبة لمصر ولا لتاريخها، هكذا كانت في العصور الإســلامية، كانت مصدرًا للعلــوم وللثقافة في «الأقطار العربية» وأنها قامت بذلك الواجب لم تقصر فيه إلا حين اضطرها الســلطان العثماني إلى التقصير فيه».. ولم يشــأ هو أن يتوســع في ذلك الجانب التاريخي وتكفيه الإشــارة، ومن المهم أن نتذكر ذلك الآن، خاصة مع صعود تيار العثمانيين الجدد في بلادنا، ذلك أن ســليم الأول حين غزا مصر والشام مسقطًا الدولة المملوكية، فإنــه حول مصر إلى مجرد ولاية عثمانية ومنعها من دورهــا الطبيعي في محيطها العربي، وتراجعت الثقافة والعلوم العربية، أما وقد سقطت الدولة العثمانية فعلى مصر أن تستعيد دورها وبقوله هو «أما الآن وقد استردت مصر استقلالها فيجب أن تسترد مكانتها الثقافية في الشرق القريب».

لم يقــف طه حســين عند حد إلقاء هذا الاقــتراح، بل راح يناقش الخطــوات العملية لتنفيذه، وكان يــدرك مقدمًا الحجة التي يمكن أن تتعلل بهــا وزارة المعارف والحكومة المصرية، وهي عدم المقدرة الماليــة، ولذا راح يفند تلك الحجة أو الذريعة، تارة ينبه الحكومة بضرورة الإقدام على هذه الخطوة لأهميتها وضروريتها» ومما لا شك فيه أن هذه المدارس إن أنشأناها ستكون أنفع لمصر وللبلاد التي تنشــأ فيها من كثير من القنصليات والمفوضيات التي نبثها في أقطار الأرض ولا نكاد نجني منها، ولا تــكاد البلاد التي نبثها فيها تجني منها نفعًا. وهو يرى كذلك أن القيام بهذا الدور يعني للعالم: «أننا صرنا مســتقلين فعلاً وأن حياتنا المســتقلة تفرض علينا تبعات مهمة يجــب القيام بها، لأن التخاذل والتراجع.. لا يلائم ما نزعمه لأنفسنا من الكرامة والزعامة». ويطالب القادرين والأثرياء من المصريين أولاً ومن الوطنيين في هذه البلاد، أي فلســطين وســوريا ولبنان، أن يتقدموا لإنشاء هذه المدارس ولا يتركوا العبء كله على الدولة «وحسب الدولة أن تعينها معونة قيمة بالمال والرجال».

لم تجد دعوة طه حسين آذانًا صاغية لا في مصر ولا في فلسطين، لم تنتبه الدولة المصرية ولا قام الأفراد بدورهم وفي التاريخ لا يصح كثيرًا التساؤل: ماذا لو..؟ لكن هل لنا أن نطرح هذا السؤال اليوم وفي الواقع الذي نعيشه.. ماذا لو سعت مصر لإقامة مدارس ابتدائية وثانوية في فلسطين المحتلة، ماذا لو تأسس فرع لجامعة القاهرة في رام الله أو نابلس أو الخليل، فضلاً عن غزة؟ وماذا لو سعت مصر إلى ذلك في مناطق عرب ١٩٤٨ الذين تفرض عليهم اللغة العبرية فرضًا..؟ ألا يعد ذلك اختراقًا للاحتلال وكسراً لمحاولات تهويد فلسطين وعبرنتها، التساؤلات كثيرة ومريرة، لكن لنعد إلى د. طه حسين..

كانت فلسطين حاضرة في وعي طه حسين منذ وقت مبكر، وعنده هي أول بلد يهم مصر ويشغله، من أبسط الأشياء وأهونها إلى أكبرها وأهمها، ففي سنة ١٩٣٢ وقع في مصر حدث اعتبره هو أمرًا خطيرًا، وهو كذلك بالفعل، فقد كان كتاب «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي يطبع في القاهرة، وطبعت منه عدة أجزاء، إلى أن طلب شيخ الأزهر مصادرة الكتاب، كان الشيخ الظواهري هو شيخ الأزهر، وكان إسماعيل صدقي هو رئيس الحكومة، وكانت حجة شيخ الأزهر أن في جزء من الكتاب كلام غير طيب عن الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، وفتح طه حسين نيرانه على شيخ الأزهر وعلى رئيس الحكومة محذرًا إياهما «فقد أصبحت مصر لا تصلح مقامًا للأحرار».. ثم يقول: «قرأ الناس هذا الخبر في مصر وسيقرأونه غداً في فلسطين والشام ويقرأونه بعد غد في العراق وبلاد العرب..»، ويعتبر طه حسين قرار المصادرة فيه ظلم لأهل فلسطين والشام والعراق، وديكتاتورية تفرض عليهم من خارج الحدود.

يتساءل «بأي حق يصادر هذا الكتاب وتحظر قراءته على أهل فلسطين والشام العراق وغيرهم من المسلمين الذين لا يؤمنون لشيخ الأزهر ولا يدينون لصدقي باشا؟».

«إنه الوعي العميق لدى عميد الأدب العربي بالقرب الجغرافي وتلاصق الحدود، فضلاً عن اللغة الواحدة والثقافة المشتركة، ليس ذلك فقط بل الإيمان العميق بالحرية وبخطورة بعض القرارات في مصر، وقد تصدر بلا دراسة لتأثيرها السلبي خارج مصر.. ومن حسن الحظ أن الشيخ الظواهري شيخ الأزهر، ورئيس الحكومة صدقي باشا تراجعا عن ذلك القرار العجيب، واكتفى شيخ الأزهر بأن يطلب مقابل السماح باستكمال نشر كتاب «تاريخ بغداد» إصدار كتاب عن الإمام أبي حنيفة، يدافع عنه ويشيد به.

وفي سنة ١٩٣٣ تزداد أعداد الهجرات اليهودية إلى فلسطين، حتى بلغت أكثر قليلاً من ضعف

المهاجريــن في العام الســابق، حيــث جاء مهاجرون يهود مــن ألمانيا إثر صعود النــازي إلى الحكم، بلــغ عددهم وحدهم حوالي ٣٠ ألف مهاجر، وهناك ١٦ ألف مهاجر آخر، فضلاً عن ٥ آلاف ســائح يهــودي جاءوا إلى فلســطين ولم يخرجوا منها، اســتقروا فيها بشــكل غير شرعــي وتغاضى المندوب الســامي الإنجليزي وسلطات الانتداب عن الأمر، وفي ســبتمبر من نفس السنة توفى الملك فيصل بن الشريف حســين وهو أحد رموز الثورة العربية الكبرى ويعد من آباء القومية العربية، كانت الوفاة في أوروبــا وتقرر أن ينقل جثمانــه إلى العراق ليدفن به، وكان المفــترض أن يصل الجثمان إلى ميناء حيفا الفلســطيني ومنــه إلى داخل العراق، وكانت الوفاة مثيرة للمشــاعر العربية خاصة مع ازدياد معدل الهجرة إلى فلســطين، وتقرر أن تنطلق مسيرات من المساجد في مدينة القدس بهذه المناسبة، كان التخطيط أن يبقى المتظاهرون في حرم المســاجد ثم يتحرك وفد منهم إلى مقر المندوب السامي البريطاني وتســليم رســالة احتجاج، لكن خرج المتظاهرون من المســاجد، وأخــذ الجنود يضربونهم بالهــراوات فرد عليهم المواطنون بالحجارة، ثم انطلق الرصاص من رجال الشرطة، وكانت النتيجة أن قتل أكثر من ١١ مواطنًا وجرح العشرات وقبض على عدد من القيادات الفلســطينية كانوا مجتمعين في مقر الشبان المسلمين بنابلس. الرواية الرسمية – الإنجليزية – فيما بعد، ألقت باللوم على القتلى – كما هي العادة – فقد ذكرت أن إطلاق الرصاص انطلق – أولاً من المتظاهرين ولو كان ذلك صحيحًا لســقط قتلى بين الجنود أو أصيب أحدهم، وهو ما لم يحدث، كانت المظاهرات سلمية تمامًا، بدليل أن المتظاهريــن قرروا مســبقًا عدم المرور بالأحياء اليهودية تجنبًــا لأي احتكاك معهم. ولم يمس أي يهودي بسوء طوال هذه الأحداث، الأمر الذي دفع بعض المراقبين والمؤرخين إلى القول إن المظاهرات كانت موجهة ضد المندوب السامي والسلطات البريطانية الحاكمة في فلسطين(١).

بلغــت المظاهــرات ذروتها يوم ٢٧ أكتوبر، وإن بدأت قبل ذلك بأســبوعين، لكن ســقوط شــهداء فلســطينيين كان أمرًا مثيرًا مؤلمًا، لذا وجدنا د. طه حســين يكتب في اليــوم التالي مباشرة ٢٨ أكتوبر مقالاً بعنوان «فلســطين»، وقبل التوقف أمام مضمون المقــال وما ورد فيه، يهمنا التنبيه إلى إن طه حســين في ذلك التوقيت كان مشــغولاً بالتصدي لحكومة إســماعيل صدقــي، كان صدقي قد ألغى دســتور ســنة ١٩٢٣، وهاجمه طه حســين مما أدى إلى نقله أو إخراجه من الجامعة في عام ١٩٣٢، واعتبر طه حسين مقاومة ديكتاتورية صدقي باشا واستعادة الدستور شغله الشاغل، ولكن وسط هذا كله يترك ديكتاتورية صدقي والدستور المصري ليتناول الشأن الفلسطيني، وهذا يعني أن ما حدث في فلسطين بالنسبة له أمر جلل، يفوق ديكتاتورية صدقي والاحتلال البريطاني لمصر، ولعل هذا ما دفعه

أن يعنون مقاله «فلســطين».. سوف نلاحظ أن طه حسين شغل بالكثير من القضايا العربية وتعرض بالكتابة لمعظم الدول العربية، لكن «فلسطين» وحدها التي جعلها عنوانًا لمقال. إنه لم يضع «مصر» كلها عنوانًا لمقال من مقالاته، وكأنه يريد لقارئه أن يظل يتذكر ويردد هذا الاسم.

المقال ليس طويلاً، ولكنه غني وملئ بالإحســاس الإنساني العام، والانفعالي بما جرى، وهناك الموقف الوطنــي الخاص، ثــم انتقاد حاد للأوروبيين عمومًــا، تجاه ما يقومون به في فلســطين.. يبدأ المقال بالقول: «لو لم يكن بيننا وبين إخواننا من أهل فلســطين إلا هذا الإخاء الإنســاني العام، الذي تشترك فيه الشــعوب وأجيال الناس، مهما تختلف الأمكنة والأزمنة والظروف، لكان من حق الأحداث التي ألمــت بهم أمــس أن تذيب قلوبنا أسى وحزنًا، وأن تملأ نفوســنا حسرة ولوعة، وتشــعرنا بالرثاء لهم والإعجــاب بهــم، والرغبة الصادقة في أن يهيئ الله لهم نصرًا يرد إليهم الحق ويحفظ عليهم الكرامة والعزة ويضمن لهم الظفر والفوز».

ويطالب الصامتين بعدم الصمت أو الســكوت عما يحدث هنــاك «لو لم يكن بيننا وبين إخواننا من أهل فلســطين إلا هــذا الإخاء العام، لكان مــن الحق علينا ألا نقف من هــذه الأحداث التي ألمت بهم أمس، موقف الذين ينظرون ولا يشــعرون، ويشــهدون ولا يتأثــرون». وعنده أن من يرى هذا الظلم الذي يفرض على الشعب الفلسطيني ولا يتأثر ولا يتخذ موقفاً منه لَأَبْعَدُ من البشر وإنسانية منقوصة «ليسوا من الناس الذين سيحققون هذا الاسم، وإنما هم قوم قست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة».

هــذا كلــه بفرضية أن ليــس بين المصريين وبين «إخواننا الفلســطينيين» ســوى ما يســميه «الإخاء الإنساني».. ولكن ما بيننا أكبر كثيرًا من ذلك. يتساءل هو بمرارة «فكيف وبيننا وبين إخواننا من أهل فلســطين صلة الجوار في الدار والاشــتراك في اللغة والدين، والاشتراك في المثل الأعلى، والاشتراك فيما نلقي جميعاً من الظلم وما نحتمل جميعًا من العنف وما نسلم جميعًا من هذا الضيم المخزي، الذي لا يرضى به ولا ينبغي أن يرضى به كرام الناس».

أما وإن الأمر كذلك، أي أكبر من الإخاء الإنساني، بيننا صلة الجوار في الدار أي الوطن واللغة المشتركة وكذلك الدين المشــترك، فلابد أن تمتد المشــاركة إلى كل شيء، يقول هو: «كم نحب أن يشعر إخواننا من أهل فلسطين أنا شركاؤهم فيما يحسون من ألم وحزن، وفيما يضمرون من حسرات، وما يظهرون من زفرات، وما يعلنون من ســخط وإنكار، لهذا الظلم الذي يصبه عليهم الأجنبي صبًا، لا لشيء إلا

لأنهــم يريدون أن يعيشــوا هادئين بهذه الحياة التي منحهم الله في ظل الحق، والعدل، والمســاواة والإنصاف».

ويلح طه حسين على هذا المعنى ويكرره: «كم نحب أن يستيقن إخواننا من أهل فلسطين، إننا نجد ما يجدون، ونشعر بما يشعرون، ونألم لما يألمون له».

لا يقــف الأمر عند حد المشــاركة الوجدانية والتألم لما يألمون لــه، ولكن يمتد الأمر إلى الفعل أو تمني الفعل والعمل: «نود لو اســتطعنا أن نرد عنهم بعض ما يلقون من الشر، ونكشــف عنهم بعض ما يصيبهم من الضر، كما نود أن يســتيقنوا بأن ما بينهم وبيننا من الصلات، أمتن وأصدق من أن نقف معترضين أو فاترين أمام هذه المحن المنكرة التي تسلط عليهم في غير رعاية لحرمة ولا احترام لحق، ولا تأثر بالدين أو بالأخلاق».

ويتهكم طه حســين على قوى الظلم وما تقوم به في فلســطين، ويخاطب أهل فلسطين: «لو استطاع خصومكــم لطلبوا إليكم أن تعلنــوا الرضى عما يصيبكم والابتهاج بما ينزل بكم، وأن تســتزيدوا من هجرة المهاجرين». ويصب طه حســين جام غضبه على الأوروبيين، لأنهم يدعون الحرص على السلام وحقــن الدمــاء، وقد يكون ذلــك صحيحًا، فيما بينهم، لكــن فيما يخصنا نحــن كشرقيين فإن الأمر مختلــف، ودليله ما يجري في فلســطين وفي مــصر وفي معظم البلدان العربيــة، ويحمل الأوروبيين مسؤولية ما يقوم به الصهاينة في فلسطين «هم يكرهون أن تحكم بينهم سيوفهم ولكنهم لا يكرهون فيما يظهر أن تحكم ســيوفهم في أمر غيرهم من الشــعوب، وإلا فما إخضاع مصر لقوة الإنجليز وما إخضاع فلســطين لقوة الإنجليز، وطمع الصهيونيين وما إخضاع غير مصر وفلســطين من بلاد الأرض وأقطارها لهذه القوى الأوروبية».

انتقاد طه حســين الحاد للأوروبيين وللاســتعمار سوف يطوره، فيما بعد، إدوارد سعيد سنة ١٩٧٨ في كتابه المهم «الاستشراق» لدراســة الظاهرة الاستعمارية والامبريالية الغربية في التاريخ.. ولأن المقال كان في الأصل عن فلســطين، يختمه طه حسين بما يشــبه مرثية إنسانية ووطنية لما يجري على أرض فلســطين: «في ذمة الله شهداء فلســطين، وفي ذمة الله صرعى فلسطين، وفي ذمة الله آلام العرب في فلســطين، فليس شيء مهما يكن، وليس ألم مهما يعظم بكثير في ســبيل الوطن، وفي ســبيل الحرية والعزة والكرامة والاستقلال».

نشر المقال في جريدة «كوكب الشرق» وهي آنذاك واحدة من أشهر الصحف المصرية والعربية، وكان

طه حســين أبرز كتابها وهو أيضًا أبرز الكتاب المصريين والعرب، ومع ذلك فإن خصومه يزعمون أنه لم يكتب طيلة حياته عن فلســطين، ولا كتب يومًا كلمة فلســطين، هل كانوا يجهلون، وخانوا الأمانة العلميــة فزعموا دون علــم ومعرفة، أم كانوا يعرفون لكنهم مارســوا التجهيل والتدليس على الرأي العام لكراهية خاصة حملوها للأستاذ العميد؟!

بعد شهور من مذبحة سنة ١٩٣٣، جرى أمر آخر، ولكن هذه المرة، على أرض مصر، ولم ينتبه إليه ولا يمكن أن ينتبه إليه سوى إنسان يدرك معنى حرية الإنسان الفرد، ويعي كذلك ما يجري في فلسطين، ولم يكن غير طه حسين ليتوقف أمام ذلك الأمر..

الموضوع ببســاطة أن الكاتب الفلســطيني محمد عــلي طاهر، كان قد ضاق بما يقــوم به الإنجليز على أرض فلســطين، وحاول أن يتصدى له بالكلمة، كانت ســلطات الانتداب البريطاني في فلســطين أخــذت على عاتقها تنفيــذ وعد بلفور على الأرض، من ازدياد أعداد المهاجرين اليهود إلى فلســطين والتمكين لهم فيها، بما ينهى بإقامة الوطن القومي لليهود على أرض فلســطين، وفي المقابل التضييق على عرب فلســطين في العمل وفي الإنتاج، ومحاولة منعهم من حماية أراضيهم، المهم أن محمد علي طاهر ضاق بهذا كله وضاق الإنجليز بوجوده في بلاده، فقرر أن يأتي إلى مصر يقيم فيها ويعيش بين إخوانــه وأصدقائه من الكتــاب. وكانت مصر تخضع للاحتلال البريطاني، ولكن كان هناك دائمًا حاكم مــصري يحكم البلاد وحكومة ومؤسســات للدولة، تصدت لنجلزة البــلاد، وبعد ثورة ١٩ نالت مصر استقلالاً – غير كامل – ولكن أمكن لحكام مصر أن يحافظوا على الدولة المصرية قائمة وأن يتمسكوا بــأن تظل مصر مفتوحة أمام الأحرار العرب ومن العالم الإســلامي، يقصدها من أراد وقتما أراد، لذا وجدنا عددًا من قادة المسلمين في الجمهوريات السوفيتية يلجأون إلى مصر بعد الاجتياح الستاليني لأراضيهم وبلادهم، وقصدها كذلك عدد من أحرار العرب من كل مكان، ولم يكن محمد علي طاهر سوى واحد من هؤلاء.

والذي حدث أن الكاتب الفلســطيني تلقى خبرًا من فلســطين أن أمه مريضة وأنه قد يكون مرضها الأخــير والأفضــل لو زارها ليراها ويكــون إلى جوارها في أيامها أو لحظاتها الأخــيرة، ولم يكن دخوله فلســطين بالنسبة إليه ســهلاً ولا عاديًا، بل لابد له أن يستأذن سلطات الانتداب البريطاني، ولكنها لم تأذن، رأت بريطانيا العظمى أن دخول كاتب إلى وطنه لزيارة أمه المريضة من الصعوبة أن يتحقق، وأن تلك الزيارة يمكن أن تشــكل خطورة عليها وعلى سياســاتها ومشاريعها في فلسطين، وأن وجود الكاتب إلى جوار أمه المريضة يهدد المشروع الصهيوني.. ومضت الأيام وإذا بوالدة الكاتب تنتقل إلى

العالم الآخر، وتصله الأنباء من أهله وإخوانه بموعد الدفن، فيهرع إلى سلطات الاحتلال كي تسمح له بحضور جنازة والدته وأن يتلقى العزاء كما تفرض تقاليد البلاد وكل التقاليد الإنسانية، لكن بريطانيا العظمى رفضت أن يحضر الجنازة وأن يلق نظرة على جثمان أمه قبل أن يواريه الثرى.. وتأثر طه حسين بهذا المشهد، فكتب مقالاً بعنوان «غريب» نشر في ١٤ مارس ١٩٣٤.

يحكي طه حسين قصة صديقه الكاتب الفلسطيني، ويهمنا هنا أنه رأى ما تعرض له ذلك الصديق جانبًا من المأساة الكبرى التي تعيشها فلسطين وتعيشها مصر وكل البلاد العربية الدارجة تحت نير الاحتلال الأجنبي، يبدأ طه حسين مقاله بعبارة دالة، يضع فيها الإطار العام للقضية، تقول: «ليست مصر بلدًا نازحًا بالقياس إلى فلسطين، في هذه الأيام التي يستطيع الناس أن يطووا الأرض فيها طيًا» ويكرر هذا المعنى عدة مرات، يقول مرة ثانية: «نعم وليست مصر بلدًا نازحًا بالقياس إلى فلسطين ولا بالقياس إلى أي بلد من بلاد هذا الشرق العربي الذي تجمع بين أجزائه صلات المودة والحب، وعلاقات الثقافة واللغة والدين، فالرجل من أهله مقيم في وطنه مهما تبعد به الدار، مضطرب بين مواطنيه مهما تنأ به الآماد، مادام لم يخرج من هذا الشرق العربي، ويكررها ثالثة: «ليست مصر بلدًا نازحًا بالقياس إلى فلسطين، فما ينبغي أن يكون الرجل من أهل فلسطين غريبًا في مصر وما ينبغي أن يكون الرجل من أهل مصر غريبًا في فلسطين، ولكن الظروف القاسية والخطوب العاتية، والأيام السود تأبى إلا أن يكون المصري غريبًا في مصر فكيف بالرجل من أهل فلسطين إذا أقام على شواطئ النيل؟».

ويتساءل طه حسين بمرارة وتهكم ممسكًا بعمق المأساة العربية «وإذا كان المصري من أهل القاهرة لا يستطيع أن يزور بنها أو قليوب أو طوخ، إذا كرهت له الوزارة، أو كرهت منه الوزارة أن يزور هذه المدن مع أن أرض مصر مباحة للمصريين جميعًا بحكم الدستور والنظام والقانون وطبيعة الأشياء، فكيف تنكر أن يعجز الفلسطيني عن أن يزور مصر أو أن يعجز الفلسطيني عن أن يخرج من مصر عائدًا إلى وطنه مهما تكن الظروف التي تدعوه إلى أن يعود».

ويحمل طه حسين على الاستعمار وما يحدثه في بلادنا واصطناع الحدود والحواجز بينها «.. كل شيء في هذه الأيام يلغي ما بين البلاد والأوطان من هذه الحدود التي أقامتها الطبيعة جبلاً حينًا ونهرًا حيناً وبحرًا مرة وصحراء مرة أخرى، وكل شيء في هذه الأيام يخفف هذه الفروق التي أنشأتها الطبيعة بين الناس، ولكن هناك شيئًا يقيم مكان الحدود الطبيعية حدودًا أخرى، ويقيم مكان الفروق الطبيعية فروقًا أخرى، ويزيد التقاطع والتدابر بين الناس، وهو ظلم الاستعمار؛ ظلم

الاســتعمار يجعل الشرق العربي ســجنًا ضخمًا هائلاً يسكنه عشرات الملايين من السجناء، وهو يقسم هذا الســجن أقســامًا ويلزم أهله أن يقيموا في هذه الأقســام لا يخرجون منها ولا يدخلون إليها إلا بإذنه ورضاه».

كل مــا ســبق مجرد خواطــر أو مقدمات أولى وإطار عــام للدخول في الموضــوع المتعلق بالكاتب الفلســطيني يقــول: «أقبل مقبل فأنبأني بأن صديقًا لنا من أهل فلســطين أقــام في مصر منذ أعوام، وله في سياسة بلده مذهب يكرهه المستعمرون، فهو يقيم في مصر كأنه حر، وأكبر الظن أنه سجين، وهو راض بهذه الحرية الضيقة وهو مغتبط بهذا الســجن الذي اتخذ له من وادي النيل لأن له من الســجناء المصريين أصدقاء يحبهم ويحبونه، يخلطونه بأنفســهم ويخلطهم بنفسه، ولكن الحوادث تحدث والنائبات تنوب».

وأخذ طه حسين يقص الموضوع بأسلوبه الساحر وإحساسه المرهف الدقيق: «والله لم يقطع الصلات كلها بينه وبين وطنه في فلســطين، فهناك أهله الأقربــون وهناك إخوانه، وهناك والدته، وهو يتصل بهم، وهم يتصلون به، يلقاهم إن هبطوا إلى مصر وتسعى بينهم الكتب إن أقاموا في فلسطين».

ويصل إلى مرض الوالدة وتعنت ســلطات الاحتلال «.. والمرض هناك في فلســطين يســلك طريقًا لا متوانيــا، ولا متباطئًا، لا مفكر في أن هناك ابنًــا في مصر يريد أن يرى أمه ويجد فى الخروج من مصر مشقة وعناء».

المشكلة عند طه حسين ليست مشكلة محمد علي الطاهر وحده، لكنها تمس الجميع هنا، وبتعبيره تخــص كل الشرقيين فهو يــرى أنهم «كلهم غريب كهــذا الرجل» ومن ثم يطالبهم بــأن.. «يفكروا لأنفســهم في شيء من العزة والكرامة يطلقهم من هذه الســجون الواسعة الهائلة التي يخيم عليها الظلام».

ســوف نلاحظ أن طه حســين لم يذكر اســم الكاتب الفلســطيني طوال المقال، وتحدث عنه بضمير الغائب، ذكره فقط في الفقرة الأخيرة التي توجه فيها بالحديث إليه: «ما أجدر هذا الصديق الغريب الأســتاذ محمد علي الطاهر أن يتعزى وأن يتأسى، وأن يعلم أنه لا يشــقى وحده بهذه الآلام الثقال، وإنما يشقى بها معه كل هؤلاء الشرقيين الذين يضطرهم الاستعمار إلى حياة الذل والبؤس».

لعله أراد عدم ذكر اسم الكاتب طوال المقال واكتفى بالإشارة إليه على أنه الغريب، ليظل الموضوع

في إطاره العام، وهو أن المواطن الفلسطيني ممنوع من وطنه، والتنبيه على ما يجري داخل فلسطين بشـكل خاص، فضلاً عما يقع في البلدان العربية من ظلم الاسـتعمار واصطناع الحواجز بينها في عالم تسقط فيه الحواجز ويتحول إلى ما بات يعرف بالقرية الكونية الكبرى.

لم ينقطع قلم طه حسين وضميره وعقله عن الانشغال بفلسطين وما يجري على أرضها، حتى وفاته، وبالأحرى حتى انقطاعه لأسـباب صحية عن الحياة الثقافية، سـنة ١٩٦٤، إثر الجراحة التي أجريت لـه بالعمود الفقري ولم تكن ناجحة تمامًا ولا كانـت ناجعة، أردت أن أتوقف عند ما كتبه ومواقفه من فلسطين في العشرينات والثلاثينات، وتحديدًا ما قبل الثورة الفلسطينية الكبرى سنة ١٩٣٦، لأنها كانت السـنوات الحاسـمة للمشروع الصهيوني على أرض فلسطين، وكان الانتباه وقتها مهمًا والتنبيه أكـثر ضرورية. وكان هو من بين الذين انتبهوا ونبهوا، صحيح أن الاسـتجابة كانت أقل من المطلوب ومما يجب والضغوط الأوربية كانت قوية وعنيفة، لكن هذه ليست مشكلته هو.

حين كان تناول القضية الفلسـطينية أمرًا غير شـائع، لا يقدم عليه إلا قلة من ذوي الانتباه كتب طه حسـين ونبه، وفيما بعد حين صارت فلسـطين قضية الجميع، حولها البعض إلى قضية للمزايدة على الآخرين وتصفية الحسـابات مع الخصوم، والانتقام الشـخصي لأحقاد خاصـة، وهذا ما فعله بعض خصوم طه حسين معه، راحوا يتهمونه ويندون به، الغريب أن من فعلوا ذلك لم نعرف لهم موقفًا واضحًا في القضية الفلسطينية ولا كانت من أولوياتهم.

طه حسين وفلسطين

حلمي النمنم *

يثـير هذا العنوان العديد من التسـاؤلات، لعل من أهمها: لماذا طه حسـين بالذات من بين الكتاب العـرب عمومًا والمصريين خصوصًا؟ كان طه حسـين مجايلاً للعقاد وأحمـد أمين ود. هيكل والمازني وآخرين، فلماذا هو وحده تخصه الدراسـة؟ ولماذا فلسـطين من بين البلـدان العربية التي نتوقف عندها..؟ في شباب طه حسين كانت السودان من الناحية الإدارية والسياسية جزءًا من التاج والعرش المـصري، فلماذا لا ندرس علاقة طه حسـين بالسـودان – جنـوب الوادي- أو ليبيـا وندرس علاقته بفلسطين؟

المسـألة تتعلق، في جانب منها، بخصوم طه حسـين، وهو كان كثير الخصـوم، ذلك أنه طوال حياته شغل نفسه بإعمال العقل في معظم قضايانا، ولم يكن ينافق السلطان ولا ينافق الجمهور، وفي بلادنا نفاق السـلطان مكشوف وممجوج، لكن نفاق الجماهير وتملقها من بعض الكُتاب لا يكون مكشوفًا بالقدر الكافي ولا مؤاخذة عليه، ولم يكن طه حسين من هؤلاء، ومن ثم غاص في قضايا وأمور أحجم غيره عن الاقتراب منها، مثل التحذير سـنة ١٩٢٤ من الاستسـلام لزعامة وكاريزما سعد زغلول، ونبه طه حسين إلى أن الناس لا يفكرون لأن الزعيم يفكر لهم ولا يقررون لأنه يقرر نيابة عنهم، وأغضبت آراؤه تلك جماهير الوفد ومحبي سعد زغلول وغير ذلك كثير، والخصومات السياسية يمكن أن تنسى ويتم التسـامح معها بعد حين، لكن الخصومات ذات الصلة بالفكر الديني لا تنسى أبدًا وتتحول إلى

* كاتب وباحث مصري

ثارات حقيقية تتوارثها الأجيال وهذا ما تعرض له طه حسين.. والذي حدث أن د.طه حسين في سنة ١٩٢٦ أصــدر كتابه «في الشــعر الجاهلي» وثارت ضجة حوله واتهم بالاعتداء على الدين الإســلامي وقدمت ضده عدة بلاغات إلى النيابة العامة، ونوقش الأمر في البرلمان وتم التحقيق مع طه حســين أمام النيابة العامة وانتهى الأمر إلى حفظ التحقيق لعدم ثبوت القصد الجنائي لدى د. طه حسين، من جانبــه قام هو بتعديل الكتاب وإعــادة صياغته وحذف منه بعض العبارات التي كانت مثار الجدل والرفض وأصدره باسم «في الأدب الجاهلي».

فريــق من الإســلاميين لم يغتفرها لطه حســين ولم يثق في نتيجة التحقيقــات ولم يثق في صياغة طه حسين الجديدة للكتاب، وهكذا بقى عندهم كارهًا للدين، مستهزئًا به، رغم أنه لم يكن كذلك يومًا..

انتهز هذا التيار وفاة طه حســين في أكتوبر ١٩٧٣، وانطلق بعدها يحاكم طه حسين من جديد، بأثر رجعــى وكانــت مصر تتجه بعد حرب ١٩٧٣ إلى وجهة جديدة أريد لها أن تســير فيها، وكانت هذه الوجهة تقتضي وجود تيار الإســلام الســياسي، فانطلق رموز هذا التيار ينكلون معنويًا بطه حســين، وهكذا أصدر أنور الجندي كتاباً يتهم طه حســين بتهم متناقضة مثل أنه كان شيوعيًا وكان وجوديًا، رغم أنه يســتحيل الجمع بين الفكرتين، وإمعانًا في تشــويه عميــد الأدب العربي قيل إنه كان ممالئا للصهيونية، مناصرًا لها، أسس مجلة «الكاتب المصري» سنة ١٩٤٥ بأموال يهودية صهيونية وأنه طوال حياته، لم يكتب كلمة واحدة عن فلســطين ولا عما تتعرض له ولم يذكر كلمة «فلســطين» نهائيًا في كتاباته. وكان القصد من ذلك هو الطعن في وطنية طه حسين، وكأنهم لم يكتفوا بالطعن في عقيدته الدينية فذهبوا إلى الطعن في عقيدته الوطنية.

وبعيدًا عن طه حســين هل يمكن لكاتب عربي، فضلاً عن أن يكون مصريًا أن يتجاهل فلســطين أو يجهلها؟ وهل يمكن لكاتب أن يفلت من التوقف أمام فلسطين، سواء كان مسيحيًا أو مسلمًا؟

فلســطين هي موطن الســيد المسيح، فيها نشــأ ثم هربت به والدته الســيدة العذراء إلى مصر، ثم عاد إلى فلســطين ليعلن دعوته ويقضي هناك.. ومن ثم فهي – فلسطين – جزء من عقيدة المسيحي وثقافته في أي مكان وفلســطين بالنســبة للمسلم لا تقل أهمية، هي موقع معجزة الإسراء والمعراج، أسرى برســول الله من مكة إلى بيت المقدس، أي فلســطين، وشاء القدر أن يكون لفتح بيت المقدس شأنًا خاصًا بين الفتوحات الإسلامية، فقد فتحت صلحًا وأبى أهلها إلا أن يكون الصلح مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وليس مع قائد جيوشه، وذهب إليهم عمر بنفسه، وهنا جرت «العهدة العمرية»

التـي لا تزال تـتردد في الوثائق الدولية والمحافل السياسـية إلى اليوم.. والقصد أن فلسـطين بحكم الاعتقـاد والتاريخ الديني مفروضـة معرفيًا وعلمياً، قبل أي شيء آخر، عـلى الباحث والدارس.. أما فلسطين في الشأن المعاصر فقد أخذت اهتمام الجميع، منذ أن صارت قضية العرب عمومًا والمصريين خصوصًا لأسباب جغرافية وسياسية.

ترى أين طه حسين من هذا كله؟

كانت فلسـطين حاضرة بقوة وبعمـق في ذاكرته ووعيه وعلى أكثر من مسـتوى، التاريخي والعقلي والسـياسي.. ومن قرأ كتاب طه حسين «الشـيخان» يجد أنه في حديثه عن الفتوحات الإسلامية زمن عمر بن الخطاب يتوقف عند فتح القدس، ذكر عابرًا فتح الشـام وفتح مصر، لكن استوقفته القدس وزيارة عمر لها، كي يتم الفتح بنفسـه، بناء على رغبة سـادتها.. سـوف نلاحـظ أن حديثه هنا وفي مواضع أخرى من إسلامياته هو حديث التاريخ والماضي، الذي يأتي التعرض له وتناوله من باب الأمانة العلمية والتاريخية، لكن ماذا عن الحاضر والواقع، ولو شئنا الدقة ماذا عن فلسطين المعاصرة..؟ هنا يرد الحديث لديه في أكثر من سياق وعبر سنوات عديدة..

في سـنة ١٩٣٨ وتحديدًا في ٢٦ ديسـمبر من هذه السـنة يكتب في مجلة الرسـالة مقالاً عن «مصر والعروبـة» يتناول فيه علاقة مصر بالعالم العربي، وفي تلك السـنوات كانـت القضية مثارة، بين من يتبنـون فرعونية مصر، أي مصر القوية المكتفية بذاتها عن جيرانها ومحيطها العربي، وكان هناك من يـرى أن تلتحق مصر بأوروبا وتقلدها تمامًا، وكان هؤلاء يسـيطر عليهـم ارتباط مصر مع بريطانيا العظمى، وثمة فريق ثالث ارتبط بفكرة الخلافة الإسـلامية واسـتعادتها، ولم يكن هو من أنصار أيٍّ منهم.

راح طه حسـين يتحدث في بدايـة المقال عن علاقات وتعاملات مصر مع العـرب عمومًا، لكنه بعد ذلك يأخذ المقال إلى طريق آخر، هو علاقة مصر بسـوريا وفلسـطين تحديدًا، ويفاجئ د. طه حسين قُرّاءه أنه قبل عشر سنوات، أي سنة ١٩٢٨، رفع تقريرًا إلى علي ماهر، حين تولى الأخير وزارة المعارف لأول مرة، وجاء ذلك التقرير إثر انعقاد مؤتمر للآثار شـارك فيه طه حسـين، وعقد المؤتمر بين سوريا وفلسطين ولبنان، وطلب في تقريره أن تقوم مصر بإنشاء مدارس مصرية للتعليم الابتدائي والثانوي في هذه البلاد، ودفعه إلى هذا الاقتراح – كما يقول هو – ما رآه من «السلطان الفعلي للمدارس الأجنبية على هذه الأقطار» ثم يقول: «وكنت أرى أن العقل المصري أقرب إلى العقل السـوري والفلسـطيني

وأحرى أن يتصل به ويؤثر فيه تأثيراً حسنًا من العقل الأمريكي أو الفرنسي».

ولم يكــن يبالــغ في ذلك ولا يجامــل، في العام الذي كتــب فيه هذا المقال، أصدر طه حســين كتابه «مســتقبل الثقافة في مصر» والذي انتهى فيه إلى أن العقل المصري ارتبط بالبحر المتوسط وتأثر به، وارتبط كذلك بالعقل اليوناني، وقع ذلك الارتباط خلال فترة ســيادة الدولة الرومانية، وإذا عدنا إلى الجغرافيا وإلى التاريخ نجد أن ما ينطبق على مصر – هنا – ينطبق على فلســطين، ذلك أن فلســطين تمتلك ساحلاً ممتداً على المتوسط مثل مصر.

أما فترة التاريخ الروماني فقد عاشــتها مصر، كما عاشــتها فلســطين وســوريا.. ومن ثم فحين يعلن هو أن العقل المصري أقرب إلى العقل الفلســطيني والعقل الســوري، فهذا يتســق تمامًا مع أفكاره وآرائــه المكتوبة والمعلنة، المفاجأة هنا أن رأيه وموقفه المعلن ســنة ١٩٣٨ كان مثبتًا لديه من نهاية العشرينــات، لكن في تقرير رفعــه إلى وزير المعارف العمومية، ولم يأخذ به وزير المعارف لأســباب عديدة ورد ذكرها في المقال، المهم أنه يعاود طرح القضية مجددًا مطالبًا مصر، أن تنشــئ مدارس في فلسطين وفي سوريا ولبنان..

ويحاول طه حســين أن يهون من العقبات التي اعترضت الاقتراح ســنة ١٩٢٨، ويقدم تصورًا لتنفيذه عــلى النحو الــذي يتمناه، هو يســعى إلى أن يبدد مخاوف المصريين وكذلك مخاوف الفلســطينيين والســوريين، يقــول بثقة: «ما أظن أن السياســة الوطنيــة لهذه الأقطار تكره أن تنشــأ فيها مدارس مصريــة تحمل إلى أبنائها ثقافة عربية شرقية، ويحملها إليهم معلمون شرقيون مثلهم وعرب مثلهم يتحدثون إليهم بلغتهم ويشــاركونهم في الذوق والعمل والشعور». ولم يكن طه حسين غافلاً عن أن هذه البلاد العربية خاضعة للاحتلال الأوروبي، كانت فلسطين تحت الانتداب البريطاني وكانت سوريا تحت الاحتلال الفرنسي وكذلك كانت لبنان، هو لا يظن أن السياسة الأوروبية سوف ترفض أن تقيم مــصر مدارس في هذه الأقطار، لأن مصر ســمحت بقيام مــدارس أجنبية علي أرضها وأن يكون لهذه المدارس كل الفرص للعمل وللنهوض في حدود «القوانين المصرية وعلى أن يكون التبادل أساسًــا لهذا الاتفاق»، كان ذلك ضمن معاهدة ســنة ١٩٣٦ بين مــصر وبريطانيا وما تبعها من اتفاقيات، ويقول طه حسين بتهكم مرير «واضح أننا لا نريد أن ننشئ مدارسنا المصرية في فرنسا أو انجلترا أو إيطاليا، ولكن من حقنا أن ننشــئ المدارس المصرية في البلاد العربية التي تتأثر بسلطان هذه البلاد ونفوذها تأثرًا قليلاً أو كثيراً».

وهــو لا يريــد للمدارس التي يطالب بإنشــائها أن تكون تعبيرًا عن هيمنــة مصرية كما قد يتصور البعــض، ولا يريــد لها أن تفرض الهمــوم والقضايا المصرية على أبناء هذه البــلاد، بل تكون مدارس وطنية في بلادها بالدرجة الأولى، يقول ويؤكد «سننشــئها على أنها معاهد للتعاون الثقافي بيننا وبين أهل هذه البلاد، لا يستأثر المصريون وحدهم بالعمل فيها، بل يستعينون بمن يقدرون على معونتهم مــن الوطنيين، ولا تفرض فيها الجغرافيا المصرية والتاريخ المــصري دون الجغرافيا الوطنية والتاريخ الوطني. إنما تكون معاهد ينشأ فيها الوطنيون لأوطانهم لا لمصر»، ويضيف طه حسين قائلاً: وحسب مصر أنها تعين على ذلك وتشــارك فيه وتؤدى ما عليها من الحق لجيرانها وشركائها في اللغة والدين والاقتصاد، وحسبها أن تظفر منهم بالحب والمودة والإخاء..

ويذهب طه حسين إلى أن ما ينادي ويطالب به ويلح عليه، ليس جديدًا بالنسبة لمصر ولا لتاريخها، هكذا كانت في العصور الإســلامية، كانت مصدرًا للعلــوم وللثقافة في «الأقطار العربية» وأنها قامت بذلك الواجب لم تقصر فيه إلا حين اضطرها الســلطان العثماني إلى التقصير فيه».. ولم يشــأ هو أن يتوســع في ذلك الجانب التاريخي وتكفيه الإشــارة، ومن المهم أن نتذكر ذلك الآن، خاصة مع صعود تيار العثمانيين الجدد في بلادنا، ذلك أن ســليم الأول حين غزا مصر والشام مسقطًا الدولة المملوكية، فإنــه حول مصر إلى مجرد ولاية عثمانية ومنعها من دورهــا الطبيعي في محيطها العربي، وتراجعت الثقافة والعلوم العربية، أما وقد سقطت الدولة العثمانية فعلى مصر أن تستعيد دورها وبقوله هو «أما الآن وقد استردت مصر استقلالها فيجب أن تسترد مكانتها الثقافية في الشرق القريب».

لم يقــف طه حســين عند حد إلقاء هذا الاقــتراح، بل راح يناقش الخطــوات العملية لتنفيذه، وكان يــدرك مقدمًا الحجة التي يمكن أن تتعلل بهــا وزارة المعارف والحكومة المصرية، وهي عدم المقدرة الماليــة، ولذا راح يفند تلك الحجة أو الذريعة، تارة ينبه الحكومة بضرورة الإقدام على هذه الخطوة لأهميتها وضروريتها» ومما لا شك فيه أن هذه المدارس إن أنشأناها ستكون أنفع لمصر وللبلاد التي تنشــأ فيها من كثير من القنصليات والمفوضيات التي نبثها في أقطار الأرض ولا نكاد نجني منها، ولا تــكاد البلاد التي نبثها فيها تجني منها نفعًا. وهو يرى كذلك أن القيام بهذا الدور يعني للعالم: «أننا صرنا مســتقلين فعلاً وأن حياتنا المســتقلة تفرض علينا تبعات مهمة يجــب القيام بها، لأن التخاذل والتراجع.. لا يلائم ما نزعمه لأنفسنا من الكرامة والزعامة». ويطالب القادرين والأثرياء من المصريين أولاً ومن الوطنيين في هذه البلاد، أي فلســطين وســوريا ولبنان، أن يتقدموا لإنشاء هذه المدارس ولا يتركوا العبء كله على الدولة «وحسب الدولة أن تعينها معونة قيمة بالمال والرجال».

لم تجد دعوة طه حسين آذانًا صاغية لا في مصر ولا في فلسطين، لم تنتبه الدولة المصرية ولا قام الأفراد بدورهم وفي التاريخ لا يصح كثيرًا التساؤل: ماذا لو..؟ لكن هل لنا أن نطرح هذا السؤال اليوم وفي الواقع الذي نعيشه.. ماذا لو سعت مصر لإقامة مدارس ابتدائية وثانوية في فلسطين المحتلة، ماذا لو تأسس فرع لجامعة القاهرة في رام الله أو نابلس أو الخليل، فضلاً عن غزة؟ وماذا لو سعت مصر إلى ذلك في مناطق عرب ١٩٤٨ الذين تفرض عليهم اللغة العبرية فرضًا..؟ ألا يعد ذلك اختراقًا للاحتلال وكسراً لمحاولات تهويد فلسطين وعبرنتها، التساؤلات كثيرة ومريرة، لكن لنعد إلى د. طه حسين..

كانت فلسطين حاضرة في وعي طه حسين منذ وقت مبكر، وعنده هي أول بلد يهم مصر ويشغله، من أبسط الأشياء وأهونها إلى أكبرها وأهمها، ففي سنة ١٩٣٢ وقع في مصر حدث اعتبره هو أمرًا خطيرًا، وهو كذلك بالفعل، فقد كان كتاب «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي يطبع في القاهرة، وطبعت منه عدة أجزاء، إلى أن طلب شيخ الأزهر مصادرة الكتاب، كان الشيخ الظواهري هو شيخ الأزهر، وكان إسماعيل صدقي هو رئيس الحكومة، وكانت حجة شيخ الأزهر أن في جزء من الكتاب كلام غير طيب عن الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، وفتح طه حسين نيرانه على شيخ الأزهر وعلى رئيس الحكومة محذرًا إياهما «فقد أصبحت مصر لا تصلح مقامًا للأحرار».. ثم يقول: «قرأ الناس هذا الخبر في مصر وسيقرأونه غداً في فلسطين والشام ويقرأونه بعد غد في العراق وبلاد العرب..»، ويعتبر طه حسين قرار المصادرة فيه ظلم لأهل فلسطين والشام والعراق، وديكتاتورية تفرض عليهم من خارج الحدود.

يتساءل «بأي حق يصادر هذا الكتاب وتحظر قراءته على أهل فلسطين والشام العراق وغيرهم من المسلمين الذين لا يؤمنون لشيخ الأزهر ولا يدينون لصدقي باشا؟».

«إنه الوعي العميق لدى عميد الأدب العربي بالقرب الجغرافي وتلاصق الحدود، فضلاً عن اللغة الواحدة والثقافة المشتركة، ليس ذلك فقط بل الإيمان العميق بالحرية وبخطورة بعض القرارات في مصر، وقد تصدر بلا دراسة لتأثيرها السلبي خارج مصر.. ومن حسن الحظ أن الشيخ الظواهري شيخ الأزهر، ورئيس الحكومة صدقي باشا تراجعا عن ذلك القرار العجيب، واكتفى شيخ الأزهر بأن يطلب مقابل السماح باستكمال نشر كتاب «تاريخ بغداد» إصدار كتاب عن الإمام أبي حنيفة، يدافع عنه ويشيد به.

وفي سنة ١٩٣٣ تزداد أعداد الهجرات اليهودية إلى فلسطين، حتى بلغت أكثر قليلاً من ضعف

المهاجريــن في العام الســابق، حيــث جاء مهاجرون يهود مــن ألمانيا إثر صعود النــازي إلى الحكم، بلــغ عددهم وحدهم حوالي ٣٠ ألف مهاجر، وهناك ١٦ ألف مهاجر آخر، فضلاً عن ٥ آلاف ســائح يهــودي جاءوا إلى فلســطين ولم يخرجوا منها، اســتقروا فيها بشــكل غير شرعــي وتغاضى المندوب الســامي الإنجليزي وسلطات الانتداب عن الأمر، وفي ســبتمبر من نفس السنة توفى الملك فيصل بن الشريف حســين وهو أحد رموز الثورة العربية الكبرى ويعد من آباء القومية العربية، كانت الوفاة في أوروبــا وتقرر أن ينقل جثمانــه إلى العراق ليدفن به، وكان المفــترض أن يصل الجثمان إلى ميناء حيفا الفلســطيني ومنــه إلى داخل العراق، وكانت الوفاة مثيرة للمشــاعر العربية خاصة مع ازدياد معدل الهجرة إلى فلســطين، وتقرر أن تنطلق مسيرات من المساجد في مدينة القدس بهذه المناسبة، كان التخطيط أن يبقى المتظاهرون في حرم المســاجد ثم يتحرك وفد منهم إلى مقر المندوب السامي البريطاني وتســليم رســالة احتجاج، لكن خرج المتظاهرون من المســاجد، وأخــذ الجنود يضربونهم بالهــراوات فرد عليهم المواطنون بالحجارة، ثم انطلق الرصاص من رجال الشرطة، وكانت النتيجة أن قتل أكثر من ١١ مواطنًا وجرح العشرات وقبض على عدد من القيادات الفلســطينية كانوا مجتمعين في مقر الشبان المسلمين بنابلس. الرواية الرسمية – الإنجليزية – فيما بعد، ألقت باللوم على القتلى – كما هي العادة – فقد ذكرت أن إطلاق الرصاص انطلق – أولاً من المتظاهرين ولو كان ذلك صحيحًا لســقط قتلى بين الجنود أو أصيب أحدهم، وهو ما لم يحدث، كانت المظاهرات سلمية تمامًا، بدليل أن المتظاهريــن قرروا مســبقًا عدم المرور بالأحياء اليهودية تجنبًــا لأي احتكاك معهم. ولم يمس أي يهودي بسوء طوال هذه الأحداث، الأمر الذي دفع بعض المراقبين والمؤرخين إلى القول إن المظاهرات كانت موجهة ضد المندوب السامي والسلطات البريطانية الحاكمة في فلسطين(١).

بلغــت المظاهــرات ذروتها يوم ٢٧ أكتوبر، وإن بدأت قبل ذلك بأســبوعين، لكن ســقوط شــهداء فلســطينيين كان أمرًا مثيرًا مؤلمًا، لذا وجدنا د. طه حســين يكتب في اليــوم التالي مباشرة ٢٨ أكتوبر مقالاً بعنوان «فلســطين»، وقبل التوقف أمام مضمون المقــال وما ورد فيه، يهمنا التنبيه إلى إن طه حســين في ذلك التوقيت كان مشــغولاً بالتصدي لحكومة إســماعيل صدقــي، كان صدقي قد ألغى دســتور ســنة ١٩٢٣، وهاجمه طه حســين مما أدى إلى نقله أو إخراجه من الجامعة في عام ١٩٣٢، واعتبر طه حسين مقاومة ديكتاتورية صدقي باشا واستعادة الدستور شغله الشاغل، ولكن وسط هذا كله يترك ديكتاتورية صدقي والدستور المصري ليتناول الشأن الفلسطيني، وهذا يعني أن ما حدث في فلسطين بالنسبة له أمر جلل، يفوق ديكتاتورية صدقي والاحتلال البريطاني لمصر، ولعل هذا ما دفعه

أن يعنون مقاله «فلســطين».. سوف نلاحظ أن طه حسين شغل بالكثير من القضايا العربية وتعرض بالكتابة لمعظم الدول العربية، لكن «فلسطين» وحدها التي جعلها عنوانًا لمقال. إنه لم يضع «مصر» كلها عنوانًا لمقال من مقالاته، وكأنه يريد لقارئه أن يظل يتذكر ويردد هذا الاسم.

المقال ليس طويلاً، ولكنه غني وملئ بالإحســاس الإنساني العام، والانفعالي بما جرى، وهناك الموقف الوطنــي الخاص، ثــم انتقاد حاد للأوروبيين عمومًــا، تجاه ما يقومون به في فلســطين.. يبدأ المقال بالقول: «لو لم يكن بيننا وبين إخواننا من أهل فلســطين إلا هذا الإخاء الإنســاني العام، الذي تشترك فيه الشــعوب وأجيال الناس، مهما تختلف الأمكنة والأزمنة والظروف، لكان من حق الأحداث التي ألمــت بهم أمــس أن تذيب قلوبنا أسى وحزنًا، وأن تملأ نفوســنا حسرة ولوعة، وتشــعرنا بالرثاء لهم والإعجــاب بهــم، والرغبة الصادقة في أن يهيئ الله لهم نصرًا يرد إليهم الحق ويحفظ عليهم الكرامة والعزة ويضمن لهم الظفر والفوز».

ويطالب الصامتين بعدم الصمت أو الســكوت عما يحدث هنــاك «لو لم يكن بيننا وبين إخواننا من أهل فلســطين إلا هــذا الإخاء العام، لكان مــن الحق علينا ألا نقف من هــذه الأحداث التي ألمت بهم أمس، موقف الذين ينظرون ولا يشــعرون، ويشــهدون ولا يتأثــرون». وعنده أن من يرى هذا الظلم الذي يفرض على الشعب الفلسطيني ولا يتأثر ولا يتخذ موقفاً منه لَأَبْعَدُ من البشر وإنسانية منقوصة «ليسوا من الناس الذين سيحققون هذا الاسم، وإنما هم قوم قست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة».

هــذا كلــه بفرضية أن ليــس بين المصريين وبين «إخواننا الفلســطينيين» ســوى ما يســميه «الإخاء الإنساني».. ولكن ما بيننا أكبر كثيرًا من ذلك. يتساءل هو بمرارة «فكيف وبيننا وبين إخواننا من أهل فلســطين صلة الجوار في الدار والاشــتراك في اللغة والدين، والاشتراك في المثل الأعلى، والاشتراك فيما نلقي جميعاً من الظلم وما نحتمل جميعًا من العنف وما نسلم جميعًا من هذا الضيم المخزي، الذي لا يرضى به ولا ينبغي أن يرضى به كرام الناس».

أما وإن الأمر كذلك، أي أكبر من الإخاء الإنساني، بيننا صلة الجوار في الدار أي الوطن واللغة المشتركة وكذلك الدين المشــترك، فلابد أن تمتد المشــاركة إلى كل شيء، يقول هو: «كم نحب أن يشعر إخواننا من أهل فلسطين أنا شركاؤهم فيما يحسون من ألم وحزن، وفيما يضمرون من حسرات، وما يظهرون من زفرات، وما يعلنون من ســخط وإنكار، لهذا الظلم الذي يصبه عليهم الأجنبي صبًا، لا لشيء إلا

لأنهــم يريدون أن يعيشــوا هادئين بهذه الحياة التي منحهم الله في ظل الحق، والعدل، والمســاواة والإنصاف».

ويلح طه حسين على هذا المعنى ويكرره: «كم نحب أن يستيقن إخواننا من أهل فلسطين، إننا نجد ما يجدون، ونشعر بما يشعرون، ونألم لما يألمون له».

لا يقــف الأمر عند حد المشــاركة الوجدانية والتألم لما يألمون لــه، ولكن يمتد الأمر إلى الفعل أو تمني الفعل والعمل: «نود لو اســتطعنا أن نرد عنهم بعض ما يلقون من الشر، ونكشــف عنهم بعض ما يصيبهم من الضر، كما نود أن يســتيقنوا بأن ما بينهم وبيننا من الصلات، أمتن وأصدق من أن نقف معترضين أو فاترين أمام هذه المحن المنكرة التي تسلط عليهم في غير رعاية لحرمة ولا احترام لحق، ولا تأثر بالدين أو بالأخلاق».

ويتهكم طه حســين على قوى الظلم وما تقوم به في فلســطين، ويخاطب أهل فلسطين: «لو استطاع خصومكــم لطلبوا إليكم أن تعلنــوا الرضى عما يصيبكم والابتهاج بما ينزل بكم، وأن تســتزيدوا من هجرة المهاجرين». ويصب طه حســين جام غضبه على الأوروبيين، لأنهم يدعون الحرص على السلام وحقــن الدمــاء، وقد يكون ذلــك صحيحًا، فيما بينهم، لكــن فيما يخصنا نحــن كشرقيين فإن الأمر مختلــف، ودليله ما يجري في فلســطين وفي مــصر وفي معظم البلدان العربيــة، ويحمل الأوروبيين مسؤولية ما يقوم به الصهاينة في فلسطين «هم يكرهون أن تحكم بينهم سيوفهم ولكنهم لا يكرهون فيما يظهر أن تحكم ســيوفهم في أمر غيرهم من الشــعوب، وإلا فما إخضاع مصر لقوة الإنجليز وما إخضاع فلســطين لقوة الإنجليز، وطمع الصهيونيين وما إخضاع غير مصر وفلســطين من بلاد الأرض وأقطارها لهذه القوى الأوروبية».

انتقاد طه حســين الحاد للأوروبيين وللاســتعمار سوف يطوره، فيما بعد، إدوارد سعيد سنة ١٩٧٨ في كتابه المهم «الاستشراق» لدراســة الظاهرة الاستعمارية والامبريالية الغربية في التاريخ.. ولأن المقال كان في الأصل عن فلســطين، يختمه طه حسين بما يشــبه مرثية إنسانية ووطنية لما يجري على أرض فلســطين: «في ذمة الله شهداء فلســطين، وفي ذمة الله صرعى فلسطين، وفي ذمة الله آلام العرب في فلســطين، فليس شيء مهما يكن، وليس ألم مهما يعظم بكثير في ســبيل الوطن، وفي ســبيل الحرية والعزة والكرامة والاستقلال».

نشر المقال في جريدة «كوكب الشرق» وهي آنذاك واحدة من أشهر الصحف المصرية والعربية، وكان

طه حســين أبرز كتابها وهو أيضًا أبرز الكتاب المصريين والعرب، ومع ذلك فإن خصومه يزعمون أنه لم يكتب طيلة حياته عن فلســطين، ولا كتب يومًا كلمة فلســطين، هل كانوا يجهلون، وخانوا الأمانة العلميــة فزعموا دون علــم ومعرفة، أم كانوا يعرفون لكنهم مارســوا التجهيل والتدليس على الرأي العام لكراهية خاصة حملوها للأستاذ العميد؟!

بعد شهور من مذبحة سنة ١٩٣٣، جرى أمر آخر، ولكن هذه المرة، على أرض مصر، ولم ينتبه إليه ولا يمكن أن ينتبه إليه سوى إنسان يدرك معنى حرية الإنسان الفرد، ويعي كذلك ما يجري في فلسطين، ولم يكن غير طه حسين ليتوقف أمام ذلك الأمر..

الموضوع ببســاطة أن الكاتب الفلســطيني محمد عــلي طاهر، كان قد ضاق بما يقــوم به الإنجليز على أرض فلســطين، وحاول أن يتصدى له بالكلمة، كانت ســلطات الانتداب البريطاني في فلســطين أخــذت على عاتقها تنفيــذ وعد بلفور على الأرض، من ازدياد أعداد المهاجرين اليهود إلى فلســطين والتمكين لهم فيها، بما ينهى بإقامة الوطن القومي لليهود على أرض فلســطين، وفي المقابل التضييق على عرب فلســطين في العمل وفي الإنتاج، ومحاولة منعهم من حماية أراضيهم، المهم أن محمد علي طاهر ضاق بهذا كله وضاق الإنجليز بوجوده في بلاده، فقرر أن يأتي إلى مصر يقيم فيها ويعيش بين إخوانــه وأصدقائه من الكتــاب. وكانت مصر تخضع للاحتلال البريطاني، ولكن كان هناك دائمًا حاكم مــصري يحكم البلاد وحكومة ومؤسســات للدولة، تصدت لنجلزة البــلاد، وبعد ثورة ١٩ نالت مصر استقلالاً – غير كامل – ولكن أمكن لحكام مصر أن يحافظوا على الدولة المصرية قائمة وأن يتمسكوا بــأن تظل مصر مفتوحة أمام الأحرار العرب ومن العالم الإســلامي، يقصدها من أراد وقتما أراد، لذا وجدنا عددًا من قادة المسلمين في الجمهوريات السوفيتية يلجأون إلى مصر بعد الاجتياح الستاليني لأراضيهم وبلادهم، وقصدها كذلك عدد من أحرار العرب من كل مكان، ولم يكن محمد علي طاهر سوى واحد من هؤلاء.

والذي حدث أن الكاتب الفلســطيني تلقى خبرًا من فلســطين أن أمه مريضة وأنه قد يكون مرضها الأخــير والأفضــل لو زارها ليراها ويكــون إلى جوارها في أيامها أو لحظاتها الأخــيرة، ولم يكن دخوله فلســطين بالنسبة إليه ســهلاً ولا عاديًا، بل لابد له أن يستأذن سلطات الانتداب البريطاني، ولكنها لم تأذن، رأت بريطانيا العظمى أن دخول كاتب إلى وطنه لزيارة أمه المريضة من الصعوبة أن يتحقق، وأن تلك الزيارة يمكن أن تشــكل خطورة عليها وعلى سياســاتها ومشاريعها في فلسطين، وأن وجود الكاتب إلى جوار أمه المريضة يهدد المشروع الصهيوني.. ومضت الأيام وإذا بوالدة الكاتب تنتقل إلى

العالم الآخر، وتصله الأنباء من أهله وإخوانه بموعد الدفن، فيهرع إلى سلطات الاحتلال كي تسمح له بحضور جنازة والدته وأن يتلقى العزاء كما تفرض تقاليد البلاد وكل التقاليد الإنسانية، لكن بريطانيا العظمى رفضت أن يحضر الجنازة وأن يلق نظرة على جثمان أمه قبل أن يواريه الثرى.. وتأثر طه حسين بهذا المشهد، فكتب مقالاً بعنوان «غريب» نشر في ١٤ مارس ١٩٣٤.

يحكي طه حسين قصة صديقه الكاتب الفلسطيني، ويهمنا هنا أنه رأى ما تعرض له ذلك الصديق جانبًا من المأساة الكبرى التي تعيشها فلسطين وتعيشها مصر وكل البلاد العربية الدارجة تحت نير الاحتلال الأجنبي، يبدأ طه حسين مقاله بعبارة دالة، يضع فيها الإطار العام للقضية، تقول: «ليست مصر بلدًا نازحًا بالقياس إلى فلسطين، في هذه الأيام التي يستطيع الناس أن يطووا الأرض فيها طيًا» ويكرر هذا المعنى عدة مرات، يقول مرة ثانية: «نعم وليست مصر بلدًا نازحًا بالقياس إلى فلسطين ولا بالقياس إلى أي بلد من بلاد هذا الشرق العربي الذي تجمع بين أجزائه صلات المودة والحب، وعلاقات الثقافة واللغة والدين، فالرجل من أهله مقيم في وطنه مهما تبعد به الدار، مضطرب بين مواطنيه مهما تنأ به الآماد، مادام لم يخرج من هذا الشرق العربي، ويكررها ثالثة: «ليست مصر بلدًا نازحًا بالقياس إلى فلسطين، فما ينبغي أن يكون الرجل من أهل فلسطين غريبًا في مصر وما ينبغي أن يكون الرجل من أهل مصر غريبًا في فلسطين، ولكن الظروف القاسية والخطوب العاتية، والأيام السود تأبى إلا أن يكون المصري غريبًا في مصر فكيف بالرجل من أهل فلسطين إذا أقام على شواطئ النيل؟».

ويتساءل طه حسين بمرارة وتهكم ممسكًا بعمق المأساة العربية «وإذا كان المصري من أهل القاهرة لا يستطيع أن يزور بنها أو قليوب أو طوخ، إذا كرهت له الوزارة، أو كرهت منه الوزارة أن يزور هذه المدن مع أن أرض مصر مباحة للمصريين جميعًا بحكم الدستور والنظام والقانون وطبيعة الأشياء، فكيف تنكر أن يعجز الفلسطيني عن أن يزور مصر أو أن يعجز الفلسطيني عن أن يخرج من مصر عائدًا إلى وطنه مهما تكن الظروف التي تدعوه إلى أن يعود».

ويحمل طه حسين على الاستعمار وما يحدثه في بلادنا واصطناع الحدود والحواجز بينها «.. كل شيء في هذه الأيام يلغي ما بين البلاد والأوطان من هذه الحدود التي أقامتها الطبيعة جبلاً حينًا ونهرًا حيناً وبحرًا مرة وصحراء مرة أخرى، وكل شيء في هذه الأيام يخفف هذه الفروق التي أنشأتها الطبيعة بين الناس، ولكن هناك شيئًا يقيم مكان الحدود الطبيعية حدودًا أخرى، ويقيم مكان الفروق الطبيعية فروقًا أخرى، ويزيد التقاطع والتدابر بين الناس، وهو ظلم الاستعمار؛ ظلم

الاســتعمار يجعل الشرق العربي ســجنًا ضخمًا هائلاً يسكنه عشرات الملايين من السجناء، وهو يقسم هذا الســجن أقســامًا ويلزم أهله أن يقيموا في هذه الأقســام لا يخرجون منها ولا يدخلون إليها إلا بإذنه ورضاه».

كل مــا ســبق مجرد خواطــر أو مقدمات أولى وإطار عــام للدخول في الموضــوع المتعلق بالكاتب الفلســطيني يقــول: «أقبل مقبل فأنبأني بأن صديقًا لنا من أهل فلســطين أقــام في مصر منذ أعوام، وله في سياسة بلده مذهب يكرهه المستعمرون، فهو يقيم في مصر كأنه حر، وأكبر الظن أنه سجين، وهو راض بهذه الحرية الضيقة وهو مغتبط بهذا الســجن الذي اتخذ له من وادي النيل لأن له من الســجناء المصريين أصدقاء يحبهم ويحبونه، يخلطونه بأنفســهم ويخلطهم بنفسه، ولكن الحوادث تحدث والنائبات تنوب».

وأخذ طه حسين يقص الموضوع بأسلوبه الساحر وإحساسه المرهف الدقيق: «والله لم يقطع الصلات كلها بينه وبين وطنه في فلســطين، فهناك أهله الأقربــون وهناك إخوانه، وهناك والدته، وهو يتصل بهم، وهم يتصلون به، يلقاهم إن هبطوا إلى مصر وتسعى بينهم الكتب إن أقاموا في فلسطين».

ويصل إلى مرض الوالدة وتعنت ســلطات الاحتلال «.. والمرض هناك في فلســطين يســلك طريقًا لا متوانيــا، ولا متباطئًا، لا مفكر في أن هناك ابنًــا في مصر يريد أن يرى أمه ويجد فى الخروج من مصر مشقة وعناء».

المشكلة عند طه حسين ليست مشكلة محمد علي الطاهر وحده، لكنها تمس الجميع هنا، وبتعبيره تخــص كل الشرقيين فهو يــرى أنهم «كلهم غريب كهــذا الرجل» ومن ثم يطالبهم بــأن.. «يفكروا لأنفســهم في شيء من العزة والكرامة يطلقهم من هذه الســجون الواسعة الهائلة التي يخيم عليها الظلام».

ســوف نلاحظ أن طه حســين لم يذكر اســم الكاتب الفلســطيني طوال المقال، وتحدث عنه بضمير الغائب، ذكره فقط في الفقرة الأخيرة التي توجه فيها بالحديث إليه: «ما أجدر هذا الصديق الغريب الأســتاذ محمد علي الطاهر أن يتعزى وأن يتأسى، وأن يعلم أنه لا يشــقى وحده بهذه الآلام الثقال، وإنما يشقى بها معه كل هؤلاء الشرقيين الذين يضطرهم الاستعمار إلى حياة الذل والبؤس».

لعله أراد عدم ذكر اسم الكاتب طوال المقال واكتفى بالإشارة إليه على أنه الغريب، ليظل الموضوع

في إطاره العام، وهو أن المواطن الفلسطيني ممنوع من وطنه، والتنبيه على ما يجري داخل فلسطين بشـكل خاص، فضلاً عما يقع في البلدان العربية من ظلم الاسـتعمار واصطناع الحواجز بينها في عالم تسقط فيه الحواجز ويتحول إلى ما بات يعرف بالقرية الكونية الكبرى.

لم ينقطع قلم طه حسين وضميره وعقله عن الانشغال بفلسطين وما يجري على أرضها، حتى وفاته، وبالأحرى حتى انقطاعه لأسـباب صحية عن الحياة الثقافية، سـنة ١٩٦٤، إثر الجراحة التي أجريت لـه بالعمود الفقري ولم تكن ناجحة تمامًا ولا كانـت ناجعة، أردت أن أتوقف عند ما كتبه ومواقفه من فلسطين في العشرينات والثلاثينات، وتحديدًا ما قبل الثورة الفلسطينية الكبرى سنة ١٩٣٦، لأنها كانت السـنوات الحاسـمة للمشروع الصهيوني على أرض فلسطين، وكان الانتباه وقتها مهمًا والتنبيه أكـثر ضرورية. وكان هو من بين الذين انتبهوا ونبهوا، صحيح أن الاسـتجابة كانت أقل من المطلوب ومما يجب والضغوط الأوربية كانت قوية وعنيفة، لكن هذه ليست مشكلته هو.

حين كان تناول القضية الفلسـطينية أمرًا غير شـائع، لا يقدم عليه إلا قلة من ذوي الانتباه كتب طه حسـين ونبه، وفيما بعد حين صارت فلسـطين قضية الجميع، حولها البعض إلى قضية للمزايدة على الآخرين وتصفية الحسـابات مع الخصوم، والانتقام الشـخصي لأحقاد خاصـة، وهذا ما فعله بعض خصوم طه حسين معه، راحوا يتهمونه ويندون به، الغريب أن من فعلوا ذلك لم نعرف لهم موقفًا واضحًا في القضية الفلسطينية ولا كانت من أولوياتهم.